دراسات موضوعية وفنية (الرمزية) في صورة المرأة عند الشاعر عبد الرزاق الربيعي

سهاد جليل هلال الأسدي
طالبة الماجستير، فرع اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والثقافات الدولية، جامعة الأديان والمذاهب، قم، إيران
iam.hilile@gmail.com
الدكتور محمد رضا يوسفي (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، فرع قم، جامعة آزاد الإسلامية، قم، إيران
savabegyousefi@gmail.com

Objective and artistic studies (symbolism) in the image of the poet Abdul Razzaq Al -Rubaie

Asadi-Hilal Al Suhad Jalil
Masters student , Arabic Language Branch and Literature , College of Languages and International Cultures , University of Religions and Doctrines , Qom , Iran
Dr. Mohamed Reda Yousfi (responsible writer)
Assistant Professor , Department of Arabic Language and Literature , Qom Branch , Azad Islamic University , Qom , Iran

الملخص:-

تعد المرأة هي مصدر الهام الربيعي والروح النابضة بالعطاء والمحبة، إذ تبرز أهمية البحث الحالي في اظهار دور المرأة البارز في تنمية المجتمع وفي الحياة السياسية والاقتصادية والتنموية وتسليط الضوء على هذا الدور الفعال والإيجابي وتوظيفه بالشكل الصحيح للنهوض بالمجتمعات والأمم، ولتحقيق هذا الهدف لا يسعنا الا أن نبرز دور المرأة في أشعار الربيعي من خلال الأسئلة التالية، ما هي الصورة الموضوعية للمرأة في شعر الربيعي؟، ما هي الصورة الفنية (الرمزية) للمرأة في شعر الربيعي؟، ما هي خصائص الصورة الموضوعية للمرأة في شعر الربيعي؟، ما هي خصائص الصورة الفنية (الرمزية) للمرأة في شعر الربيعي؟، ولكي نجيب على الأسئلة المتقدمة في بحثنا فإننا اتبعنا المنهج الوصفي التحليلي تحقيقا للأهداف المرسومة بموجب هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: صورة المرأة، الشاعر عبد الرزاق الربيعي، دراسة موضوعية، دراسة فنية، غربة الشاعر واغترابه، الفقد الرحيم.

Abstract:-

Women are the source of the Spring and the vibrant spirit with giving and love, as the importance of the current research in showing the prominent role of women in the development of society and in political, economic and developmental life and highlighting this effective and positive role and employing it in the correct way to advance societies and nations, and to achieve this goal we can only help but that We highlight the role of women in the poems of Al -Rubaie through the following questions, what is the objective image of a woman in Al -Rubaie's poetry? (Symbolism) for women in Al - Rubaie's poetry?, In order to answer the advanced questions in our research, we have followed the descriptive analytical approach in order to achieve the goals drawn according to this research.

Key words: the image of women, the poet Abdul Razzaq Al - Rubaie, an objective study, artistic study, the strangeness and alienation of the poet, the compassionate loss.

المقدمة:ـ

إن عالم الشاعر عبد الرزاق الربيعي هو عالم حزين ينفتح على اتساعه، فالفقد مطبوع بأدق تفاصيله على صفحاته، وكلما طويت صفحة ظهر فقد جديد، وكلما قرأت مرة ظهر مفقود آخر، وهذه قراءة لعالم من عوالم الربيعي المعقدة، من الميلاد حتى يومنا هذا، وفي شعره شخصيات يتكرر فقدها دائماً، إذ يشكل تكرارها سمة من السمات الرئيسة لشعره، أبرز هذه الشخصيات وأكثرها أهمية ثلاث: الزوجة والأهل والأصدقاء، وهذه هي العوامل التي كانت تحرك فيه الشعور الفيّاض، لهذا تراه حريصًا على شعره ينتقي لفظه، ويختار موسيقاه ويهذب معناه، جوهريًا ماهرًا خبيرًا بِصَرْفِ الكلام.

ونجد أنّ الفقد الحسيّ هو الفقد الملموس الذي يعانيه الشاعر من موت شخصيات عزيزة عليه أو فراق، وهو بكل الأحوال يمثل فراق ملموس، وعند هذه النزعة يبتكر الشاعر أسلوبًا ذا خصوصية ذاتية، وظهر الفقد بين حدّة المضامين، وهيأ له أسباب الصرخة المعذبة، وقد عبر عن هذا التحول بالتعويذة التي يستعيذ بها أنْ تطردَ عنه أشباح الموت وهو في بغداد أو عمان أو صنعاء أو مسقط، وفي كل مكان زارهُ، وقد شكل الفقد الحسيّ رصيداً من المعاناة المضنية حملها في سفرٍ دام طويلًا، وقد تضاءل ضوءُ الأمل أمام روحه المعطاة، وضاق به أفق الحياة بما وسعَ.

وكان الفقد يتسع ويطول، «فقد رافقته نكباته منذ وقت بعيد، وحتى "الفقد الرحيم" الوحيد في حياته، المتمثل بفقد شريكة حياته؛ كان قاسيا وعدوانيا، من جهة أن الشاعر كان على مسافة قريبة جداً من آلام ومعاناة الراحلة وصراعها مع مرض السرطان الفتاك، الذي أودى بحياتها...»، لذا فالقصيدة عبارة عن محاولة حاضرة لإسقاط توحد مع ما يرتئيه الشاعر لنفسه، وإذا كان ما كابده الربيعي من أنواع الفقد، فإنَّ مكابدته لألم فراق (عزّة) كان أشد وطأةً، وقد امتزجت تجربة الفقد عنده بالحسّ العاطفي، وأصبحتْ تجربة شاملة، وبذلك عانى الربيعي حتى وجد أحلامًا توشك على الذبول.

يأخذ الفقد الذي يعانيه الشاعر، الذي هو امتلاءٌ بآخرين، بالازدياد مع العمر والتجربة، «كأن الفقدان قدرٌ يتبعه كظله، فاتحًا شدقيه لالتهام كل ما قد تجود به حياته الشحيحة من مسرات، وآخره هذا القليل الجميل...»[1]، ويصل في مجموعة متفرّقة من

القصائد يتحدَّث فيها عن الزوجة، والعائلة الكبيرة، المتمثلة بالأُم الأب والأخوة والجدّة والعمة، ولاسيما فقد الأصدقاء، وإلى محاكاة خاصة للطقوس، ويتصالح فيه مع آلام وحدته، ويتعمق إحساسه بالفقد، ليأخذ نصيبًا كبيرًا وحيزًا واسعًا، كما عبر عنه على مدى تجربته الشعرية، منذ ديوان (إلحاقا بالموت الأول)، مرورا بديوانه الثاني (حدادا على ما تبقى)، ثم بشكل متعمق في ديوانه (قليلًا.. من كَثير عزة) في إحالة رثائية لزوجته الراحلة عزة الحارثي، ويؤرخ الربيعي وقائع حياتية فاصلة في تجربته، ولاسيما في ديوانيه (جنائز معلقة) و (ليل الأرمل)، إذ يعلنها قصيدة ملتاعة خارجة من ألم التجربة الذاتية التي تتشكل منها المادة الشعرية للشاعر، أي أنّ تصوير التجربة الشخصية تربط الماضي بالحاضر وتمهد للمستقبل بتجسيمه في التصوير الشعري لما حدث، ذلك عن طريق التوظيف اللغوي، وإنَ شاعرنا يدرك حقًا أنَّ الحياة فقدت براءتها، وأن خطواته فيها تشعره بالضياع، إذ تسلمه إلى وحشة الليل والاستسلام لجبروت الوحدة القاسية، وما طرأ علينا ونحن ندخل بوابة اللوحة الشعرية للمجاميع في (المجلد الأول والثاني)، ومجموعة (نهارات بلا تجاعيد)، ومجموعة (خذ الحكمة من سيدوري)، إذ نشعر حسًا مأساويًا، وحزنًا يغلف فضاء القصيدة، تمثّل عمق المعاناة التي حملها الشاعر في غربته واغترابه.

على أنَّ حزن الربيعي الذي زاد صقلًا وعمقًا مع طوال المران تجلى في شعر فقده، إذ كانت علاقته بآفة الفقد نموذجًا مغايراً لما كانت عليه عند شركائه في الابتلاء، فالفقد قد مثّل عنده «كنز ثمين ورثه من الحضارة الرافدينيّة القديمة...»[٢]، والواقع أن مثل هذه الأحداث أثرت بعمق على الشاعر الذي خلقها من جديد في ضوء تجربته وخياله.

وإذا ما التزمنا الصدق في إثبات هذه العلاقة، وبيان أثرها، وتسجيل رحلة شاعرنا في ظلها، فلن يكون ثمة أصدق إثباتًا، وأوضح بيانًا، وأدق تسجيلًا من عبد الرزاق الربيعي نفسه، وعندئذ لا يُكره الباحث نفسه على مهمة الاستنباط والتأويل، وإنما يكفيه أن يوجّه عزمه إلى اختيار الاستشهاد، والاجتهاد في التأصيل. فالربيعي هو وحده الذي يدرك سرّ هذه العلاقة، لأنها حقيقية، ولا يملكها غيره ممن حوله، إذ يقول في تقديم ديوانه:[٣] «علاقتي بالفقد ليست آنيّة، ولا هي بالطارئة، ولا تربطني به صداقة عابرة، بل هي متجذّرة، في ذاكرتي تجّذر الحياة التي خاصمت بعضي...»[٤]، كما جعل من عيشه وحيدًا فرصةً لبناء علاقاتٍ جديدة ومتنوّعة مع الأشياء التي تُشكّل عالَمه، لذلك كان يظهرُ رجلاً مختلفًا بين

مجموعةٍ نصوصٍ وأُخرى، لربما كانَ أحدٌ غيرهُ من ظهر في انعكاسِ المرآة، لربما أحدٌ غيره من لاذ بالآخرين، لكنَّ كليهما يمثّلان الشّاعر، ففي نسيج العلاقات المُعقَّدة المُتشابكة ينمو الشِّعر، والكلمات التي تبدأ من العلاقة مع الأشياء، كانت في النهاية، تُصوِّر العالم الداخلي للشّاعر.

المبحث الأول

صورة المرأة الموضوعية في شعر الربيعي

وفيما يلي نتناول بالتفصيل حضور النسوة في شعر الربيعي:

المطلب الأول

مكانة المرأة في شعر عبد الرزاق الربيعي

فالمرأة عند الربيعي لها قداسة كبيرة وقيمة عالية، حيث أثبت الربيعي ذلك من خلال مشاعره اللطيفة الصادقة تجاه زوجته الراحلة،

فهي الشغف الذي يتدفق في جميع مجالات الحياة، واعتبر المرأة مظهر من مظاهر الخصوبة ووهب الحياة، حيث جسد الربيعي في أشعاره حضور المرأة الدلالي أكثر من حضورها المادي، وجعلها العنصر المطلق الذي بدونه لا يكتمل الوجود.

ولم تحتل المرأة هذه المكانة لولا انها أم الحياة، وكما قال الشاعر سليمان العيسى عن المرأة: نبضة الشعر الأولى منذ كان النبض. فهي المحرك لعجلة القصيدة(٥).

كما قلنا، هؤلاء النساء حاضرات في حياة الشاعر وهن والدة الشاعر أو عشيقته أو زوجته أو ابنته أو أي امرأة أخرى وجدت طريقها بطريقة ما إلى شعره.

أول امرأة يتصل بها رجل المستقبل هي والدته. بوعي أو بغير وعي، فهي تلعب دوراً كبيرا في تكوين شخصيته. كما يدرك الابن أنوثة أمه بشكل متزايد فيستجيب لها بغير وعي وهو أمر قائم على الغريزة؛ لذلك، يظهر المظهر الأنثوي للوجود أو الأمومة أحيانًا عند الأطفال في شكل اهتمام كبير بالأم، فالأم بالنسبة للرجل هي الحب الأول. فهو يأخذ مواقفه وإعجاباته في جميع المجالات من الأم، وأحيانًا، بشكل لا إرادي، يقارن جميع النساء في حياته بأمه، فهي لديه "أعظم من كل النجوم، كل الآلهة، قلب امرأة تجعلني طفلاً من حضنها. "

تظهر الأفكار الداخلية للشاعر أولاً في صورة والدته ثم في صورة نساء أخريات، ويلعب ارتباطه بالأم الحانية دور العاشق والمخلص. والحقيقة أن اعتماد الشاعر على المرأة هو أول ما يؤكده ويدعمه، ثم هناك حبيب يملأ فراغ العشق في وجود الشاعر. بعد ذلك يتسع دور المرأة ليكمن في مساعدة الشاعر ليكون بداية الثورة الخارجية في حياته.

مع أنّ القصيدة تنحو منحى سرديًا: «الفلّاحةُ التي لا تعرفُ القراءةَ والكتابة هل كانت تصدّق لو قلتُ لها أنّني سأدوّن اسمَها في كتابٍ لي»، الا إنها عميقة الدلالة على رموز الوعي والغفلة، «فالسرد يتوغل بمفاهيمه وما يمكن أن يضاف إليه في كل أنواع الخطابات الإنسانية، لأن تجربة الإنسان الحقيقية تتركز حول السرد كما تتركز في التفاعل الذي ينتجه»[٦]، إلا أن تجربة الربيعي تطورت وتمكنت من الموضوعية، لاسيما التجربة المبثوثة في حناياها، بعد أن عزم على تدوين اسمها (في عام ٢٠٠١) كردة فعلٍ على سلبية الحياة، ففي هذه النظرة التفاؤلية الخاصة يتوحد الفقد والحياة (نكايةً بالعالمِ) الذي يأخذ بالحقائق الظاهرة الزائفة.

وتتوالى المصائب على عبد الرزاق الربيعي، وتفجعه الدنيا من فقد إلى فقد، حيث خطفت يد المنون العمة (**أم حسن**) فزاد حزنه حزنًا، فالعمة كانت سهلة التقبل، ذكيّة العاطفة، حاضرة البسمة، ومما آلت إليه العادة أن يطلق نصًا حمل عنوان (أمومة)، إذ إن الأمومة امتياز لا تحظى به كلّ امرأة مُنجبة، فهي طاقة عطاء متدفّقة، وحنان مُتناهٍ، ونقاء غير متكلف، إذ يقول:

قبل أن تغمض الجدّة

عينيها في شوطها الأخير

أوصت المشيعين

أن تنام بحضن أمها

وبدون قناعة كاملة

حفروا لها ثقبا

مناسبا لنزوة ميّتة

وأهالوا التراب على شيخوختها

وتفرّقوا

في كلّ فجّ عميق

في تلك الليلة

نامت الجدة بحضن أمها

ونامت الأم

مطوّقة بيديها المهشمتين ابنتها

وسط دهشة الأرواح الجائلة

في محيط المقبرة

ولم تعد الجدّة جدّة

ولم يعد للتراب معنى..

لاسيما بعد أن بدأ كائن ما

يحبو تحته...

واستعادت الأمّ

أمومتها المفقودة

حتى الحليب

تدفّق كشلّال حنان

من صدرها

شربته الجدّة

على عجل

وأسندت رأسها

على أضلاع أمّها العتيقة

ثمّ نامت للأبد![٧]

تنهض قصيدة (أمومة) في زمنٍ ولدت الفاجعة الماثلة، تفشّي فيروس كورونا[٨]، فيقول

عبد الرزاق الربيعي: «كوفيد - ١٩، أصاب مفاصل كثيرة من كوكبنا بالعطب، ولأنّ مواسم حصاد الوباء لا تفرق بين البشر، فالكلّ سواسية كأسنان المشط، أما عاصفة الفقد الهوجاء التي لا تبقي إن هبّت، ففي خضمّ هذا الفقد، صار الموت بلا نواح»[٩]، إن الإقبال على المجهول يفرض على النفس صنوفًا من محاورات ذاتية يغلفها الخوف، فيعلق الأديب على جبار عطية على القصيدة ومخاطبًا أخيه عبد الرزاق: «أدهشني التقاطك لوصية العمة الراحلة، ليلة الجمعة أمسِ الأول، ورغبتها في أن تدفن قرب أمها في مدفن العائلة حيث (وادي السلام) إلى نصٍ مؤثر يمجّد الأمومة، شكرًا أخي على تطويعك حدث الفقد الحزين إلى مناسبة للاحتفال باللقاء بعد غياب»[١٠]، فيرد الربيعي على أخيه: «في الموت يعود الإنسان طفلًا، ينام برحم أمّه الكبيرة الأرض، هذه الرسالة التي وصلتني من وصيّة العمّة، رحمها الله، والمعنى العميق الكامن وراء نص أمومة، شكرًا أخي على»[١١] فالعمة قد أوصت بأن تدفن قرب أمها، وليس في مقبرة عائلتها، إذ وجدت في وصيتها رغبة في عودتها إلى طفولتها، إذ لا تطمئن إلا بقرب أمها.

ولقد كان الباعث الحقيقي لهذه المعاني هو الشاعر الذي أقلقه هاجس الفقد (في محيط المقبرة) إذ استقر فيها الربيعي من دون مقدمات، وقد حرص على إخراج المشهد بلمسة العطف والأمومة، ليطرح في الختام حقيقة يعانيها، ويلخص بها واقع الحياة. ولابد من التنويه إلى أن الشاعر قد أكثر من قصائد الفقد في الأهل[١٢]، إلا أننا لم نذكر ألا بعضها التي استوفى معها الموضوع.

واجه عبد الرزاق الربيعي ظروف حياته القاسية بصبر وجلادة، إلا ان الفقد كان اصعب ما واجهه في هذه الحياة، إذ لم يستطع صده ولا دفعه، فإن «فَقْدُ الأحبّة في الأوطان غُرْبَة، فكيف إذا اجتمعتِ الغربةُ وفَقْدُ الأحبّة...»[١٣]، ويمكن اتخاذ هذه الاضاءة مدخلًا لبحث فقد الزوجة في تمثلات الفقد في شعر عبد الرزاق الربيعي، إذ إنَّ الايقاعات الشعرية تخلق حالة مسالمة أو حالة وسط اضطراب، وهناك عدّة طرق أخرى مفيدة من ذلك، منها عامل التناقض على مستويات مختلفة، والمستوى العام هو التناقض بين الحياة والموت، وبين الأيدولوجيات المتعارضة، وأهم من ذلك الجمع هي السعادة، والحزن، والحياة، والموت، والولادة، والفقد، وغيرهما يهدف إلى توضيح حياة الشاعر، وأيضًا حتمية الفقد في شعره.

ونجد أن الزوجة مصدر الإلهام والحب بمعناه الواسع الذي أرانا إياه خيال الربيعي الجامح وقريحته الفيّاضة، صوراً من الجمال الروحي وبلمساته الشعرية المعبرة بصدق وصراحة مطلقة تنمّ عن ترف حقيقي للعاطفة الإنسانية المتقدة بالحرمان والاغتراب، إذ تتفاوت المشاعر ازاء ذلك الفقد بحسب عدّة أمور، منها قوة التحمل، والقدرة على التعامل، ولعلّ غياب الزوجة عن الزوج وفقدها، من المواقف التي تؤلم المرء وتترك في نفسه جرحًا عميقًا، لما كان بينهما من مودة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٤]، ونجد أن الربيعي قد اعتنى بالزوجة شأنه شأن أيّ شاعر، إذ وجد فيها المخلوق الحسّاس النابض للحياة، الموحي بالفن السامي والأدب الرفيع، ولاسيما قد «اتسمت العلاقة بين المرأة والرجل في الحضارات القديمة عند السومريين، بنوع من القدسية والجلال...»[١٥]، لذا نجده كثيراً ما يتكأ في تعبيراته الدلالية على هذه الحضارات في إظهار العلاقة المقدسة بين الرجل والمرأة، فضلًا عن ايراد هذه الحضارات في موضوعات أخرى.

وقد كانت المرأة في البيئة الجديدة مثار إعجاب الشاعر عبد الرزاق الربيعي أولًا، ومصدر انشغال فكره وسمعه وقلبه ثانيًا، وقد أحس بهذا الإعجاب حين التقى لأول مرة - في أول فرصة تتاح له- بالفتاة الطموح عَزَّةَ الحارثي، فيسجل هذا الإعجاب قائلًا: «هي أول امرأة عمانية عرفتها، حين كنت أقيم باليمن، وكانت لها شقيقة هناك، تتردّد عليها بين وقت وآخر، وذات يوم اقترحت على، عبر اتصال هاتفي، فكرة زيارة مسقط، فوافقتُ على الفور، وما أن أبديت لها موافقتي، قامت بعمل ترتيبات الدعوة، وحين هبطت الطائرة التي أقلتني في مسقط، وجدتها بانتظاري عند بوّابة خروج القادمين مع أخيها وأختها، وكانت قد أعدّت لي كل شيء، فتبدد شعور الغربة منذ اللحظة الأولى، وأحسست إنني في المكان المناسب، مع المرأة المناسبة، وبعد فترة قصيرة ارتبطت بها، في حفل عائلي بسيط، ثم ذهبنا لنسكن شقة صغيرة، ولنبدأ حياتنا المشتركة من الصفر، ومرت السنوات بحلوها ومرها، ولم يعكّر صفو الود شيئًا»[١٦].

هناك التقى بالحبيبة، وعاش سنوات هانئة إذ إنَّ معاناته قد انتهت، وإن حياته أصبحت تميل إلى الاستقرار والراحة، بعد أن عاش حياة بؤس وحرمان في بغداد، كانت أهم امرأة

أثرت على حياته التي قابلها عام ١٩٩٨ وتزوجها في العام نفسه الموافق ٢٢/اكتوبر/١٩٩٨، وكانت مثله فتاة قوية البنية منطلقة على سجيتها، وقد ظلت سنوات تعمل في التحليلات المرضية بالمستشفى السلطاني.

المطلب الثاني

دخول المرأة في حياة عبد الرزاق الربيعي

لم يكن دخول المرأة في حياة عبد الرزاق الربيعي بدافع استثمار مرحلة الشباب، وإنما كان لقاؤه بها فرجًا من كربة أثقال الحياة المادية والنفسية التي أمتُحن بها في غربته واغترابه، وهكذا كان الأمر في طبيعته، وكذلك كان المتوقع لمستقبل هذه العلاقة بين هذين الطرفين، بيئة ونشأة، وثقافة ومواطنة، وعقيدة ومواءمة، فإذا بهذه العلاقة تصبح دليلًا على ما في الحياة من أسرار لا تحيط بها حدود العقل، ومن أغوار لا تطيق الغوص إليها تقاليد الواقع.

وعلى مرّ السنوات راقت للشاعر الحياة في سلطنة عُمان، فقد أحبها لعدم تميزها بشخصية معينة، واستيعابها لكل أنواع الناس والأنشطة، وفرصها الكثيرة للكتابة والنشر والفن، وبعد زواجه من عَزَّةَ الحارثي شعر بالراحة والهدوء في حياته المغتربة، وتمتع بحياة هانئة مع أسرته فكان هو وزوجته يستضيفان الأصدقاء الكتّاب والممثلين والصحفيين والناشرين والأطباء في منزلهما بمنطقة القرم، وكانا كثيرًا ما يذهبان لدار الأوبرا السلطانية، لحضور عروض موسيقية وغنائية ومسرحية، وكان الربيعي يجد متعة في السفر معها، فسافرا سويًا إلى الص ين ومكثا شهرًا، ذلك في عام ٢٠٠٩، وتركيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والمانيا، عدّة مرات؛[١٧] ولكن شعور عبد الرزاق الربيعي بعدم الاستقرار ظل ساكنا لفترة قصيرة فقط.

وفي هذا المضمار يستعرض الربيعي كلّ ما يستوحيه خاطره من حبّ وجمال وذكريات وطيب مرّ به وعاشه بروح وإحساس «فحكاية عزة هي حكاية حب وألم و حياة كاملة مليئة بالتفاصيل، فقد كانت أكثر من زوجة، فهي صديقة، وحبيبة، وأم، والأهم من كل هذا: وطن بديل، وكان كلّ شيء في حياتنا يسير هادئا، وجميلا، حتى اكتشاف المرض اللعين عندها انقلبت حياتنا إلى جحيم، ومع ذلك لم نفقد الأمل بالله، والطب فتنقلت بين الهند، وفرنسا، ثم أمضت في أحد مستشفيات بلجيكا سنة، ونصف كنت خلالها معلقا بين

مسقط، و"ييج" البلجيكية، حتى عودتها إلى مسقط بعد أن تعب جسدها من جرعات الكيمياوي ولم يتحمل أكثر، لتصارع المرض دون معين سوى الله، وتلفظ آخر أنفاسها في المستشفى السلطاني، وعندما أهالوا عليها التراب أحسست أنهم دفنوا نصف عمري، وذكرياتي، وأسراري، وأحلامي، ولم يتبق لي سوى "دجلة" والقصيدة تضيئان عتمة أيامي، ومعهما محبة المحيطين بي...».

وتموت الزوجة ولم يشفع لها دعاء الشاعر ولا صلاة الحبيب، ويبقى للربيعي الألم والذكرى، ومن الواضح أنَّ فقدها ترك أكبر الأثر في نفس عبد الرزاق، ونجده يقول: «لم يبدأ الإحساس بالخسارة بعد رحيلها، بل بدأ منذ أخبرتني حين سألتها، وكانت عائدة من العمل في طريقها لتعيدني من عملي، كما اعتادت يوميا، عن نتيجة فحص أجرته بعد معاناتها مع سعال متكرر استمر أسابيع، فأجابتني: "ماذا أقول لك؟ النتيجة تقول إنني مصابة بالسرطان"، فضحكت، وظننتها تمزح فالتفتت نحوي، وقالت بألم: "أنا جادة"، عندها دارت بي الأرض، تلك كانت لحظة فاصلة في حياتي، لأنني أحسست إن زلزالا أصاب حياتي، وبعد أن أعادت الفحص واستدعاني الطبيب وأبلغني بالنتيجة، وإن العلاج يبدأ برفع الرئة المصابة عندها كتبت:

خذي رئتي

خذي ما ضاع من عمري

وما خطّت يد القدر

مشيناها ومن كتبت عليه مشى...،

إن الحالة التي نزلت على الشاعر جعلته يرتجف، وكأنه يستنكر ذلك من خلال ما أبداه للمتلقي من صورة تعكس مدى تعلقه، وعدم تحمله الموقف الذي أصابه وجعله لا يدرك ما يحيط به، ولا يشعر لعظمِ النازلة، ويتوجّع على أساها قلبه، يظهر لها البشاشة ويخفي الجمر المستعر ينهش صدره نهشاً، وهنا يتناص الشاعر مع البيت:

مشـــيناها خطـــى كتبـــت علينـــا ومـــن كتبـــت عليـــه خطـــى مشـــاها[١٨]

المبحث

الصورة الفنية (الرمزية) للمرأة في شعر عبد الرزاق الربيعي

لم تكن هؤلاء النسوة حاضرات فعلا في حياة الشاعر رغم وجودهن في شعره، فكان يكافئهن ويعيدبنائهن باضافة جوانب الى شخصيتهن بطرق اخرى، فالشخصية الجديدة التي يخلقها الشاعر لها سوابق تاريخية وأدبية "مثل ما نراه في قصائد البياتي"، حيث تتضمن هؤلاء النساء على شكل خطب وأساطير ورموز انثوية بالنسبة للربيعي، فالى جانب دور الأم والزوجة والحبيبة واعتبارهم مصدر الحب لأستمرار الحياة، فإن المرأة لديه هي شغف يتدفق وبطلا دائما يصل الى الناس في اصعب المواقف ويصبح ملاكا للخلاص.

المطلب الأول

مظاهر الصورة الفنية (الرمزية) للمرأة في شعر عبد الرزاق الربيعي

في قصائد الربيعي تكون بطلة عالم الشاعر امرأة تظهر أحيانا على شكل سحابة، واحيانا على شكل شمس، واحيانا على شكل اساطير انثوية، وبالنسبة للشاعر لا يهم ما هو الاسم الذي تحمله البطلة، فاحيانا يذكرها في صورة عائشة والارا وخزامي، واحيانا في صورة عشتار وعشتروت، ودائما ما يكون خطاب الشاعر لهذه المرأة رومانسيا ويعتمد على وجود امرأة تحب الشاعر.

اهتم الربيعي بالمرأة من ناحيتين:

الأولى: المرأة في حياتها الشخصية وفي موقع الدعم العاطفي.

الثانية: المرأة في موقع المنقذ في الحياة الاجتماعية والسياسية، وكلاهما مهم وفعال للغاية.

يرى الربيعي ان التغيير في العالم وخلق عالم ملئ بالحب والعاطفة والسعادة يأتي من امرأة لم تعد مختبأة في المنزل، بل انه يخرج بكلماته المؤثرة فيعتبر الحب هو المرشد لكل الحركات العظيمة التي تجلب الناس الى بيت السعادة.

إن فقدْ الحبيبة المواسية في الغربة سبب له قلقًا عارمًا وخلق في نفسه شعوراً بعدم التوازن، إذ إن موتها فتح ذاكرة الفقد، فقد عانى قلقًا إمتزجَ بمعاناته الجسدية، لقد أحدث وفاتها فراغا في حياة الربيعي فراح يعيش غربة خانقة في مسقط، بفقدانها تشعرُ وكأنه دفن

ظلّه السعيد، وحبّه الأثير، فيقول: «وجدت نفسي "كالمستجير من الرمضاء بالنار، لقد فررت من ألم الموت إلى ألم الكتابة، وكان أحلاهما مرّا، ويبقى الألم" مربّي الإنسان الأكبر، كما يقول أناتول، ودافعا مهمّا للكتابة، والحياة...»[١٩]، حينها أدرك الربيعي أن الدهر مهما منحه من لذة النعيم ورقة الوصال بقرب زوجته، فإنه يخبئ له قدرًا مكتظًا بالأحزان والفقد، فوجد نفسه أنه لا مفر من الشعر إلا العودة إليه ليستكمل بالخيال والإبداع ما عجزت الذاكرة عن استيعابه وتدوينه، وأصبح يلوذُ بالشعر منقذًا ومخدرًا، وهكذا خرج الشعر عن صورته المرجوة وتحول من ترجمة موضوعية إلى واقعة حياتية.

جاهد الربيعي كثيرًا كي يصمد في وجه ذلك الشيء المفزع الذي تجسده الفقد، بيد أن مسعاه خاب، والليل يأكله، والافكار تصارعه، لا تدعه يرقد فضلًا عن آلامه المستديمة، هذه هي أزمة الإنسان المعاصر، كل مكاسبه تضيع في دوامة الصراع المهدد في كل لحظة بالانتهاء إلى لا شيء.

ولعل من بواكير قصائده عن فقد الزوجة وأعمقها: (قليلًا.. من كثير "عزة")[٢٠]، هذه القصيدة من مجموعة القصائد الطويلة، التي تقع تحت إطار الفقد، كتبها الربيعي بكل ما يمتلك من شاعرية الفقد، وكأنه لم يرثِ قبلها أحد، كان ذلك في صباح اليوم الأول من وفاتها، الموافق ٢٠١٦/٦/١٤، إذ كان ينتظر نزولها للإفطار، فيقول:

صباحٌ

يطلُّ على الصمتِ

إذ لا لونَ للوقتِ

في ربوةِ اللامكان

فقومي من الليلِ

قولي لحراسِ نومكِ:

موعدُ إفطاري الآن

حانْ

وحانَ رجوعي لبيتي

حيثُ صغيري

اليتيمُ المتيّمُ

يبكي وحيدًا

وحين تكفُّ المياهُ

عن الجريان

بعينيهِ

يعدُّ لي الحلمَ

خيطًا من الشمسِ

خبزًا

مدافًا بشهدِ الحنان

قومي سريعًا

من الليلِ

قولي لهم:

أخوةُ الرملِ

والعتمةِ الجاثمةِ

لم تعدْ ليلتي قاتمةً

منذُ ودَّعتْ آلامَ صدري

وصبري

وصرتُ

جناحًا.

فطِرْتُ

وطارَ الأوانَ

قومي سريعًا

من الليلِ

قبلَ القيامةِ

واغتسلي

بالضياءِ

عودي إليكِ

فمنذُ المساءِ

أراكِ

تَغُطِّينَ بالنومِ

بين أرواحِ سربِ حمامٍ

وَضَعْنَ السماءَ على راحتيكِ

ورُحْنَ

يَنْقُرْنَ

كفيكِ

إذ الراحتان

أشهى من البرقِ

أندى من الصبحِ

أحلى من المنِّ

أكثرُ طيبًا من الزعفران

قومي

لإطعامِ أرواحِ

زغبْ الحواصلِ

لا ماءَ.. لا شجرَ»

في ظلامِ الزمان

ولما نروي العروقَ

من الضوءِ والشوقِ

عودي إليكِ

إلى اللهِ

قولي:

كفيلةَ يُتْمِ المتيّم

بين يديكِ

فرفقًا

بقلبهِ

ذاك الذي جرّحتْهُ صروفُ الزمان

قومي سريعًا من النومِ

قولي لأرواح سربِ الحمامِ

احملي عرشي الآنَ

قبل أن يرتدَّ

طرفُ الصباحِ

فموعد إفطار روحي

حانْ...(٢١)

إذ يصوغ الربيعي إلتياعه الحزين، وهو يناجي (عزّة) باثًا لها انفعالاته، مرسلًا نغمات تشفُّ عن نفس محزونة، فنحن إزاء مفارقات واستعارات يتراكم بعضها فوق بعض، ويتصل بعضها ببعض اتصالًا لغويًا، وهكذا يترتب علينا أن نلتقطها من سطح القصيدة بغية التعرف عليها، ذلك لأن مخيّلته بدأت تطوف، فقد أصبح كل شيء خلافًا لما كان عليه، من تفجع، وجزع وألم وحسرة تفيض بها القصيدة، إذ كشفت عن مكانة الزوجة في حياة الشاعر، لقد وجد في قربها سكنا وأنسا يزيل وحشة غربته، ووقوفه هذا يريد به الحياة والديمومة للمكان الذي حوى زوجته، ألا أنه ذات (صباح جديد) تحول إلى مكان قفرٍ خالٍ لا حياة فيه،

وحالة من الخوف والقلق قد تملكه قبل (موعدُ الإفطار) فجعله يشعر ذلك الشعور الذي بدا غريبًا (كاليتيم المتيم)، وهنا يبرز الشاعر مركزيته من خلال تركيزه على طلبه (قومي سريعًا) إذ في هذه الجملة تحديدًا تناصًا مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قم الليل الا قليلا﴾[٢٢] ويحيلنا إلى تصوير حالته بأنه ما زال يخاطب حيًا ويشير إليه بالقيام، وليست هذه الجملة فقط وإنما هناك تناص أخر بقول الشاعر:

قبل أن يرتدَّ

طرفُ الصباحِ[٢٣]

مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾،[٢٤] وهذا تناص مع القرآن الكريم، حاثًا زوجته للعودة سريعًا (قبل أن يرتدَّ طرفُ الصباحِ) وهذه صورة لشدة ولع الشاعر بزوجته وليس باستطاعته العيش وحيدًا من دونها.

وقد أجاد في بيان الحالة التي عاشها، جاعلًا منها - الزوجة - مركز القطب والمحور الذي تدور حوله الأحداث، ولاسيما الاستذكار لماضي زوجته الذي يملأ المكان، ثمّ ينتقل إلى وصفه لحاله بعد رحيل عزة، ونلحظه عائدًا إلى الاستذكار مرة أخرى وهذا يعود إلى حالته ونفسيته المضطربة التي لا يستطيع أن يقف بها على حالٍ واحدٍ، فقد هيمنت مشاعره مع المكان في رسم ملامح المعاناة إلى سببها هذا الفقد.

ونجده ينتقي اللفظ الذي يحرك العواطف ويسعى في أن تأتي مطالع قصائده قوية مؤثرة وقد يفعل ذلك بتكرار بعض الكلمات، ومن خلال استعماله لهذا الأسلوب اللغوي فالتكرار في حقيقته: إلحاح على جهة مهمة في العبارة يُعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها... فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، والقصيدة هي أقرب شيء إلى قلب الشاعر وأعز شيء إلى نفسه، فهي التي يعبر فيها عما يدور في خاطره ويجول في نفسه، وفي فقد الزوجة يقول الدكتور إحسان عباس: «هو البكاء على زوال الرقة والجمال... وهو لون ذاتي خالص... كأنه ترجمة ذاتية قصيرة...»، كيف لا يجزع لفقدها، وهي كل ما أعد الشاعر من عدة وسند وذخيرة أمام شدائد الزمان وغدره، إذ كانت أهم أركان الحياة ومرتكزها في نفسه، وزيادة في تأكيد الشاعر على عمق

الأثر النفسي الذي خلفه الفقد، فصّور أثر هذا الفقد وعظم المأساة الذي خلفها رحيلها عن حياته، ثم انعكاس ذلك الأثر المؤلم في نفسه، وقد أجاد الربيعي في قصيدته هذه التي تميزت بصدق العاطفة وحرارتها وتفاعل الشاعر معها بتجربة شخصية صادقة تدل على مدى ارتباطه بزوجته، وسمو منزلتها ورفعة قدرها في نفسه، مما يدل على مكانة (عزّة) في نفس (عبد الرزاق)، كل تلك المنزلة الواسعة، قد خلقت فراغًا أوسع في نفس الربيعي عند الفقد، «فكل شاعر يعكس رؤيته ومفهومه للموت عندما ينعى زوجته، ومن الطبيعي أن تختلف الرؤية من شاعر لآخر، فالشعر هو انعكاس لما يحمله من ثقافة عن الموت فيظهرها في شعره...»[٢٥]، مما تنبعث من مشاعر صادقة تعبيراً عن تجربة إنسانية حقيقية.

ونحن هنا بصدد الحديث عن ظاهرة أدبية تكلم عنها الدكتور عناد غزوان وهي المرثاة الغزلية، ومع أنه حددها بشعر العصر الأموي، لكننا نجدها في هذا النص:

كفيكِ

إذ الراحتان

أشهى من البرقِ

أندى من الصبحِ

أحلى من المنِّ

أكثرُ طيبًا من الزعفران[٢٦]

فهنا نجد التغزل بزوجته المتوفاة بكلمات حملت شحنات تعبيرية وأعطت قوة دلالية لهذا التغزل الذي بدا واضحًا في هذه الكلمات (أشهى، أندى، أحلى) وشكلت كثيراً من النصوص التي كتبها الشاعر بعد وفاة زوجته، "إنَّ هذه الظاهرة في المرثاة الغزلية لا نجد لها مثيلاً آخراً إلا عند العشاق العذريين إذ إن قصائدهم تكشف فاعل وامتزاج رثاء النفس بالغزل تفاعلاً وامتزاجاً فنيين"[٢٧] فنجد هنا أن روح الشعر العذري تتكشف عند الشاعر من خلال حبه لزوجته، هذا الحب النقي المليء بالشجن والمودة.

هذا النص هو نص مكثف من التناصات والاقتباسات والتضمين، هذا نجده على طول

النص المليء بالحزن والمأساة ففي قوله:

قومي

لإطعامِ أرواحِ

زغبْ الحواصلِ

لا ماءَ.. لا شجرَ

هنا تناص مع قول الحطيئة:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ زُغْبِ الحَواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ[٢٨]

إذ شبه أطفاله الصغار كما شبههم الحطيئة بزغب الحواصل، أي لم ينبت على حواصلهم سوى الزغب القصير، كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران[٢٩]، والشاعر كان واصفًا دقيقًا لحالته، فهو كما كان الحطيئة يواجه ضيق السجن وشكواه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، هنا الشاعر أيضًا يعيش ضيق الحياة وسجنها الحزين لفقده زوجته، وأيضًا نجد أن هناك دلالات موجودة داخل النص مثل تكرار فعل الأمر (قومي /اغتسلي /عودي /قولي /احملي) وتكرار لفظة (قولي) تحديدًا، بإشارة إلى الرجاء بالعودة والقيام من الموت والغياب إلى الحضور والتواجد، ولكن هي صيحات في الهباء، ما أوجعت الشاعر وآلمته، والأفعال عمومًا تدل على التجدد والحدوث[٣٠].

إنّ (عزّة) قد تركت في نفسه ذكريات كانت تحضر في ذهنه كل يوم فيتحرك في صدره الشجن، فينظم فيها قصيدة جديدة، وهكذا ظل الربيعي يكتبها إلى يومنا هذا، ولشدة تعلقه واعتزازه بها فقد بلغت قصائده عن فقدها أكثر من خمسين قصيدة، حتى تحوّلت إلى رمز للمحبة المتجدّدة، والعلاقة المستمرّة التي لا يفصم عراها الموت، ولا شك في أن حبه لزوجته لم يكن لسبب جمالها كما صورها وحسب، بل لأنها جمعت فضلًا عن الجمال والرقة واللطف والعطف، الدماثة والحنو والكرم[٣١]، ثم يأخذ بعد ذلك بتعدد مآثرها ومحاسنها وزيادة منه لتأكيد عظمة منزلتها ورفعة قدرها لديه، وليوحي بالفراغ الكبير الذي تركته في نفسه، فارتسمت صورها في ذهنه، ورسم هذه الصور في شعره أصدق ما يكون الرسم والتصوير، إذ قال:

طيورُكِ لم تعدْ هنا

فلا حُبَّ

ولا ريحانَ

ولا كفَّيكِ اللتين تفرشينهما

تحتَ زُغْبِ المناقيرِ

حين تبثُّ شُجُونَها الصباحيّةَ

وهي تداعبُ سقفَ روحِكِ

في الحديقةِ الخلفيّةِ

لكنَّها...

منذُ جفافِ هبوبِك

فظلّت وحيدةً

تزرعُ الهديلَ

في زوايا النسيان

فالحمائمُ لا تجيدُ المساومةَ

على راحتيكِ

وتأبى التقاطَ الحَبِّ

من الأرصفةِ

وشيئًا فشيئًا

لم تعدْ هنا

وهنا عادَ هناكَ

لذاكَ

ذابتْ

مثل كلمات العشّاقِ

في محيطاتِ الغيابِ...[٣٢]

إن قصيدة (حمائم) تنمّ عن صدق الإحساس وتفاعل المشاعر الجياشة مع عظم المصاب الذي مُنيت به روح الشاعر، فعلى الرغم من حالة الانهيار التي كان الربيعي يجتازها، أخذ يستحدث الشاعرية الخصبة فيه، فالقصيدة كانت مرآة لما في نفسه من عاطفة، مرآة تمثل العاطفة تمثيلًا فطريًا بريئًا من التكلف والمحاولة، فهو ما استطاع أن يخرج به عن تعزية نفسه و (الحمائم التي لا تجيد المساومة)، ذلك بين (الشجون الصباحيّةَ)، و (الحديقةِ الخلفيةِ)، وما إلى ذلك من اوصاف (ذابت في محيطات الغياب)، على الرغم من أن العنوان يرشح القصيدة لأن تكون صورة شعرية كبيرة ذات مدلولات متباعدة ومتداخلة في آن واحد، غير أن الربيعي يحاول أن يعطي القارئ صورة واضحة عن الفقد، أقرب ما تكون إلى الحقيقة، ذلك أن موت (عزّة) وما كان قد تركه من حزن في نفسه، مكنه من أن يتفنن في شعر الفقد.

فالشاعر يحشد من الآفاق النفسية ما يدل على أن الحمائم هي كل ما يملك، والصورة تتراوح بين الاستعارة التصريحية، والمكنية، ولكن أثرها المعنوي يمتد إلى أكثر من ذلك ما يدل على أن اللغة في تعاملها مع مفردة، (زُغْبِ المناقيرِ)، ما هي إلا مدخلًا من مداخل الفكر، والمضمون لدى الشاعر، فضلًا عن أن الصورة الفنية للحمائم، لا يمكن أن تقتصر على المضامين ولكن الإشارة الأكثر تضمينًا بشكل يمكن أن يكون غير ظاهر، هي فكرة الغياب.

المطلب الثاني

استخدام الربيعي للألفاظ الحزينة وتكرارها

ويصرّ الربيعي على استعمال وتكرار الألفاظ الحزينة التي لها ارتباط وثيق بالرحيل والفقد كما في القصيدة: (لم تعدْ هنا)، كما إنها تحمل في طيّاتها رموزًا تعكس رؤية شاملة، إذ إن الربيعي قد خلق عوالم فنية متجددة انطلقت من رحاب الفقد، وقد وظف في إبداعه هذا المنحى اللغوي الجمالي لا ليطرّز القصيدة بالمفردات التي يُكثر الشعراء من توظيفها، بل لأن عبد الرزاق له مقصدية مقدّسة في كل توظيفاته لهذا المساق اللغوي الذي يحمل في طيّاته رمزًا للماضي بأبعاده المختلفة.

إذ نرى الانتقال الموضوعي في قصائد فقد الزوجة عند الربيعي، ففي قصيدة (قليلًا.. من كثير «عزة» نراها مرثاة غزلية قائمة على ألفاظ دالة على فيض الوجدان، وجمالية الإحساس، بينما قصيدة (ظلماتٌ) نرى الألفاظ قد اختلفت، وانتقل من مرحلة الشعور بالانتشاء إلى مرحلة الشعور بالفقد والألم، فحالة الحزن المتأججة دفعت الشاعر إلى الإكثار من الخطاب المأساوي، إذ كان خياله أكثر تنظيمًا ولوحته الشعرية أكثر ترابطًا، مما يدل على معاناة النفس ومجاهدتها، لتأصيل هذه الصفة، إذ يقول في قصيدة ظلماتٌ:(٣٣)

ظلامٌ يتكدّس

فوقَ ظلام

وخلفَ الظلامِ

تمرقُ عربةٌ سوداءُ

محمّلةٌ بجثامينِ ظلام

يختفي المشهدُ

وسطَ عتمةٍ جارفةٍ

وظلامٍ بعيدةٍ

بلا أطرافٍ

أغلقُ نافذةَ قِطارِ الليلِ

يهتزّ كوبٌ

فيَنْدَلِق ظلامٌ

على الطاولةِ

أَمْسَحَهُ بمنديلٍ

حتى لا يتبلّلُ دمي

بحبرِه

يغيبُ كلّ شيءٍ

أفتحُ عينيّ على سِعَتِهما

فأرى سيلَ ظلامٍ

يتلوه ظلامٌ

يسقطُ

من الأعلى

على شكلِ صخورٍ مظلمةٍ

يواصلُ الليلُ هديرَه

وسطَ الليلِ

ومن بعيدٍ

يبزغُ

فجرٌ بلا ملامحَ

أفتح عيني أكثرَ

فتلوحُ

شاهدةٌ

في آخرِ النَّفَقِ

ليس لهذا النص بالفعل اسم سوى "ظلمات" إذ تكررت كلمة ظلام بشكل مباشر٩ مرات مثل (ظلام، الظلام، مظلمة)، وبشكل غير مباشر٥ مرات مثل (سوداء، ليل، عتمة، فجر بلا ملامح، حبر) مرات، حيث نجد أن الظلمة في كل منعطف قد أخذت حيزًا كبيرًا وخلفت دلالات عديدة، سواء أكانت من القصيدة أم من روح الشاعر الذي يصارع هذه الظلمات بالدمع والشهيق.

ظلامٌ يتكدّس

فوقَ ظلام

وخلفَ الظلامِ

تمرقُ عربةٌ سوداءُ

محمّلةٌ بجثامينِ ظلام

في هذا النص المجتزأ نجد أنَّ هذا التكرار ليس تكراراً اعتباطيًا أو من باب المصادفة أو الحشو في النص وإنما عكس صورة العتمة التي يعيشها الشاعر، وكما نعرف أن تقنية التكرار لها دلالات كثيرة «فالشاعر من خلال تكرار بعض الكلمات والحروف والمقاطع والجمل، يمد روابطه الأسلوبية لتضم جميع عناصر العمل الأدبي الذي يقدمه، ليصل ذروته في ذلك إلى ربط المتضافرات فيه ربطًا فنيًا موحيًا، منطلقًا من الجانب الشعوري، ومجسداً في الوقت نفسه الحالة النفسية التي هو عليها، والتكرار يحقق للنص جانبين، الأول، ويتمثل في الحالة الشعورية النفسية التي يضع من خلالها الشاعر نفسه المتلقي في جو مماثل لما هو عليه، والثاني: (الفائدة الموسيقية)، بحيث يحقق التكرار إيقاعًا موسيقيًا جميلاً، ويجعل العبارة قابلة للنمو والتطبيق، وبهذا يحقق التكرار وظيفته كإحدى الأدوات الجمالية التي تساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره؛ لأن الصورة الشعرية على أهميتها ليست العامل الوحيد في هذا التشكيل...».[٣٤] إذن ما أراد الشاعر بثه هو سوداوية المشهد الماثل في حياته، ومن ثم يسترسل بسرد مشاهد سريعة متكررٌ فيها الظلام الذي يطارده ليل نهار، فهو يقول:

أغلقُ نافذةَ قِطارِ الليلِ

يهتزّ كوبٌ

فيَنْدَلِق ظلامٌ

على الطاولةِ

أَمْسَحَهُ بمنديلٍ

حتى لا يتبلّلُ دمي

بحبرِه

في هذا المشهد الليلي نرى نفسية الشاعر المضطربة التي تعيش على هواجس الرحيل والذكرى والخوف من قدوم العتمة والليل، فهو تؤرقه ذكرى الموت الذي غيّب أقرب الناس له وهي زوجته التي عاش بعدها موجّعًا وحائرًا وغائرًا في العتمة.

وهناك مشهدٌ آخر للعتمة رافق الشاعر، الذي يحاول بكل مشهد من هذه الظلمات

الخروج للنور لكن من غير فائدة:

أفتحُ عينيّ على سِعَتِهما

فأرى سيلَ ظلامٍ

يتلوه ظلامٌ

كلما يحاول الشاعر أن يمد يده للضوء يسحبه الظلام للأسفل، فهو يتناص مع قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[٣٥] ذلك أن «ظاهرة التّناص، وخاصة التناص القرآنيّ في العصر الحديث، أحرزت منزلة رفيعة في الأدب المعاصر؛ فقد استخدمه أغلب الشّعراء العرب، منهم شعراء الرّافدين كعنصر فني، وذلك لأهمية ما في القرآن من دلالات عميقة ومضامين سامية، فتعدّدت القصائد المتناصّة معه وتنوّعت إشاريا، ولفظيّا، وشكليًا، وإيحائيًا، ودلاليا على شكل اجترار وامتصاص وحوار، فكلّ شاعر أخذ من القرآن واستفاد منه حسب ذوقه وفكرته...، ونجد الربيعي يعيش حالة من الحزن الحالك الذي يقلب أيامه المشمسة إلى ليالٍ حالكة السواد.

ومن بعيدٍ

يبزغُ

فجرٌ بلا ملامحَ

أفتح عيني أكثرَ

فتلوحُ

شاهدةٌ

في آخرِ النَّفَقِ

وفي مشهد آخر يشعر بخيبة الأمل التي تحاصره ولا تكاد تنفك عنه، فهو كلما حاول أن يجد نفسه ويصارع الذكرى ونسيان المآسي تبزغ له في قمة أمله، وهو ما أفقد الشاعر كثيرًا من الأيام السعيدة.

إن هذا النص تحديداً له قراءات مختلفة ولو تفحصناه من الجانب البنيوي لوجدنا أن

تكرار كلمة ظلام ورد في النص تسع مرات وهذا التكرار المكثف كانت له دلالة سيميائية فالسواد والظلام يرتبط بمعان عديدة يمكن تلخيصها بالموت والدمار من جهة، والشر والمهانة من جهة ثانية، فضلًا عن القداسة والوقار في بعض المواقف، وهذه المعاني ما زالت شائعة له حتّى يومنا هذا.

ومن مظاهر آهاته التي حصدها جراء فقد زوجته، هي حزن (دجلة)، يتألم الربيعي بتألّم ابنته، ويشعر بمقدار ما تقاسيه من حزن وما تكابده من حرقة لهذا الفقد، فيخاطبهما معًا، قائلًا:

الصغيرةُ تندسّ

بين الظلام الكثيفِ

تندسّ ما بيننا في السرير

تندّس في الحلم

أخادعها بالتناوم

لكنّها بين شقوق الحكايات تندسّ

أندسّ في حلمها البضّ

بين تفاصيل ألعابها

إلى أن أغيب

.....

ذات يومٍ أفقتُ

وجدتُ الوسائدَ خاليةً

سوى من سعالٍ قديمٍ

جنوب الصباحِ

بحثتُ سرير الألم

فكانت تئنُّ

وكانت دموعُ الصغيرةِ

تنسابُ

فوق سريرٍ بعيدٍ

فتندسُّ

من وحشةٍ

بين حضنِ الغياب...(٣٦)

استطاع أن يبرع في هذا الخطاب المأساوي المؤثر الذي طغى عليه الحزن وثورة الحنان واطياف الحياة، وعبّر الربيعي عن أبوّته لابنته (دجلة) تعبيراً يحمل في طيّاته أعذب الآمال، ويمكن أن نلحظ إن حرارة العاطفة في القصيدة أخذت تزداد كلما أخذت الطفلة (تندسّ)، حتى يأخذ به الحزن وفيض الألم إلى حد التدفق الشديد، ومن ثمّ ينتقل (ذات يومٍ أفقتُ) ليكمل الصورة الحزينة، معبراً عن ذلك الفقد التي رسمت ملامحه عبر (سعال)، وقد حلت به المصيبة، وصار الثرى مضجعها، حتى باتت نتيجة ذلك (الوسائدَ خاليةً)، ويؤكد عظمة وألم الفراق حينما يصف (دموعُ الصغيرةِ تنسابُ فوق سريرٍ بعيدٍ) وهي حالة الطفلة المضطربة البعيدة عن الراحة والسكينة ولا تعرف عيناها الرقاد.

ويمكننا أن نفهم طبيعة عبد الرزاق الربيعي كلها على حقيقتها وندرك شخصيته في تقبضها الداخلي إذا لاحظنا أن الطبع الأصيل من نفسه هو طبيعة الحزن بقوة والاستجابة للفقد بشدة وأن طبيعة الحزن الهادئ الذي يطالعنا بها الربيعي، والاستجابة للمؤثرات إنما تأصلت في نفسه مع الزمن بحكم الفقد والمفقود.

وممّا تقدّم نجد أنّ تعامل عبد الرزاق الربيعي مع تجربة فقد الزوجة كان بحسٍ إنساني نبيل فيه صدق التعاطي ورهافة الإحساس والنبل. وقد يرجع هذا إلى ما تمتعت به المرأة من مكانة في ذهنه فرضت معها احترامها، وتقديرها فكان فقدانها في نفسه يتميز بلوعة أشد لضياع السكن الذي يأوي إليه في حياة سادها القلق والاضطراب، فالذي كان يشاهد الابتسامة لا تفارق شفتيه والبشر يطفح به وجهه، كان يعجب كيف أن هذا الرجل يكبت ألمه وحزنه وبؤسه ويحتفظ به في دخيلة نفسه، وفي هذا الفقد -فقد الزوجة- يعدّ الربيعي من طلائع شعراء العراق في العصر الحديث، بما أوتي من سعة وتفصيل وصدق وواقعيّة

متفاعلة مع الحدث، خالقًا شعرًا بعيدًا عن المحاكاة والتقليد، محركًا المشاعر وملهبًا العواطف في نفس سامعيه ومتلقيه، وغدت (عزّة) الصورة المثلى في شعر الربيعي المحبّ روحًا وعاطفةً لا مجرد حسًّا فحسب، بل المهيمن والعنصر المركزي.

الخاتمة:

١. ان تصرف الربيعي في التعامل مع المرأة والمفاهيم الانثوية أخذ شكلا مختلفا وهذا ما شهدناه من خلال اشعاره، حيث قام بابراز حضورها الدلالي اكثر من حضورها المادي، فهي ليست وجها جميلا ولا جسدا عامرا بالفتنة بل هي روح تفيض عاطفة وقيمة رمزية عالية كونها مصدر الخصوبة، فهي الحبيبة الحاضرة في كل التفاصيل، الملهمة، المعشوقة التي تضفي على الحياة معنى وتجعل الواقع يتخلى من صلابته فيغدو اكثر طراوة، وكان لسعة ثقافة الشاعر واطلاعاته الدور الكبير في هذا الأمر..

٢. ان وجود رموز انثوية في شعر الربيعي هو ليس البداية بل هو نتيجة تيار تشكل في المجتمع ويحاول خلق نوع من التوازن بين القوى الموجودة في المجتمع مع تغير العلاقات الاجتماعية.

وبعدما تقدّم في هذا البحث من دراسة دراسات موضوعية وفنية (الرمزية)

في صورة المرأة عند الشاعر عبد الرزاق الربيعي، نختم قراءتنا:

١- يمكننا أن نفهم طبيعة عبد الرزاق الربيعي كلها على حقيقتها وندرك شخصيته في تقبضها الداخلي إذا لاحظنا أن الطبع الأصيل من نفسه هو طبيعة الحزن بقوة والاستجابة للفقد بشدة وأن طبيعة الحزن الهادئ الذي يطالعنا بها الربيعي، والاستجابة للمؤثرات إنما تأصلت في نفسه مع الزمن بحكم الفقد والمفقود.

٢- تعامل عبد الرزاق الربيعي مع تجربة فقد الزوجة كان بحسٍ إنساني نبيل فيه صدق التعاطي ورهافة الإحساس والنبل. وقد يرجع هذا إلى ما تمتعت به المرأة من مكانة في ذهنه فرضت معها احترامها، وتقديرها فكان فقدانها في نفسه يتميز بلوعة أشد لضياع السكن الذي يأوي إليه في حياة سادها القلق والاضطراب، فالذي كان يشاهد الابتسامة لا تفارق شفتيه والبشر يطفح به وجهه، كان يعجب كيف أن هذا

الرجل يكبت ألمه وحزنه وبؤسه ويحتفظ به في دخيلة نفسه، وفي هذا الفقد -فقد الزوجة- يعدّ الربيعي من طلائع شعراء العراق في العصر الحديث.

هوامش البحث ومصادره

(١). الصائغ، «حوار مع الشاعر الصائغ، مركز النور، بغداد، ٢٠٢٠.
(٢). أبوعون، صحيفة الرأي اليوم الالكترونية، العدد ٥ ، ٢٠١٧.
(٣). في ديوانه: (قليلًا.. من كَثير عزّة "نصالُ الفَقد، والسُهد، والوجْد").
(٤). الربيعي، الاعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، ٢٠٢١، ص ٨٤
(٥) الصائغ، «حوار مع الشاعر الصائغ»، مصدر سابق، ص ٤٣.
(٦). زيدان، البنية السردية في النص الشعري: ص ٤٣
(٧). الربيعي، ارواح ثكلى في كوكب مريض: ص ٨٨
(٨). ويكيبيديا، «هي جائحةٌ عالمية مستمرة حاليًا، تفشّى المرض للمرة الأولى في مدينة ووهان الصينية في أوائل شهر ديسمبر عام ٢٠١٩، وبعدها قد أعلنت منظمة الصحة العالمية رسميًا في ٣٠ يناير عام ٢٠٢٠، أن تفشي الفيروس يشكل حالة طوارئ صحية عامة تبعث على القلق الدولي، وأكدت تحول الفاشية إلى جائحة يوم ١١ مارس من العام نفسه، وقد أُبلغ عن أكثر من ٨٢، ١ مليون إصابةً في أكثر من ١٨٨ دولة، حتى تأريخ ٣٠ ديسمبر ٢٠٢٠، تتضمن أكثر من ١، ٧٩٠، ٠٠٠ حالة وفاة»
(٩). الربيعي، «في وداع سنة الوداع»
(١٠). الربيعي، «في وداع سنة الوداع»
(١١). الربيعي، «في وداع سنة الوداع»
(١٢). الربيعي، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة (خفف الوطء، محنة صقلية، جوال ليلي، على قارعة السحاب، أمهات لا نهائيات، أصابع فاطمة)
(١٣). الاصفهاني، أدب الغرباء: ابو الفرج الاصفهاني، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٢
(١٤). الروم: ٢١
(١٥). المساوي، البنيات الدالة في شعر أمل دنقل: اتحاد الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٣٢٤
(١٦). الأصفهاني، أدب الغرباء: مصدر سابق، ص ٣٣
(١٧). الأصفهاني، أدب الغرباء: مصدر سابق، ص ٣٦
(١٨). الابيشيهي، المستطرف لكل فن مستظرف: ج ١، ص ٤٩١
(١٩). أبوعون، «صحيفة الرأي اليوم الالكترونية»
(٢٠). الربيعي، الاعمال الشعرية الكاملة: ج ١، ص ٩١

(٢١). الربيعي، الأعمال الشعرية الكاملة: ج ١، صص ٩١-٩٦
(٢٢). المزمل: ٢
(٢٣). الربيعي، الاعمال الشعرية الكاملة: ج ١، ص ٩٣
(٢٤). النمل: ٤٠
(٢٥). البهادلي، رثاء الزوجة في الشعر الأندلسي بين المركز والهامش: دار العفاف، بيروت، ١٩٩٩، ص ٦٦٦
(٢٦). الربيعي، الأعمال الشعرية الكاملة: ج ١، مصدر سبق، ص ٩١
(٢٧). اسماعيل، المرثاة الغزلية في الشعر العربي، مطبعة الزهراء بغداد، ١٩٧٨، ص ٢٩
(٢٨). الاصفهاني، الأغاني: ج ٢، ص ١٧٨؛ ابن السكيت، ديوان الحطيئة برواية و شرح ابن السكيت: ص١٠٧-١٠٨
(٢٩). ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، بيروت، ١٩٧٨، ص ٩٧
(٣٠). فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، دار عمار، ٢٠٠٨، ص ٩
(٣١). الأسدي، «لقاء مباشر مع الشاعر عبد الرزاق الربيعي»
(٣٢). الربيعي، الاعمال الشعرية الكاملة: ج ١، ص ٩٧-٩٦
(٣٣). الربيعي، الاعمال الشعرية الكاملة: ج ١، ص ١٦٦-١٦٥
(٣٤). الخزابشة، «الإبداع وبنية القصيدة في شعر عبد الله البردوني»: عالم الفكر، العدد الاول، ٢٠٠٨، ص ٢٤٢-٢٤١
(٣٥). النور: ٤٠
(٣٦). الربيعي، الاعمال الشعرية الكاملة: ج ١، ص: ٩٩-٩٨